بيرم التونسى فى الميدان

كنت معتزما أن أكتب عن ـ بيرم التونسى فى الميزان ـ شأن الناقد عندما يتعرض لموضوع بالنقد والمقارنة والتحليل، ولكننى لم أجد فى بيرم ما يستحق أن يقوع فى ميزان، ليكون محل نقد أو موازنة، لأن بيرم ينفرد بمساوئ الصيغة دون محاسنها، فلا ينبغى لذلك المقارنة أو الترجيح.

ولهذا كتبت عن ـ بيرم التونسى فى الميدان ـ ولما كانت لفظة الميدان تحتمل من المعانى أكثر مما تحتمل من الحروف، فما زلت مشفقا من عرض بيرم فى هذا الميدان، لأننى أخشى أن يختلط عليه المعنى المقصود، فيظن نفسه وقد أصبح قائدا من قواد هذا الزمان، أو فارسا من فرسان سالف العصر والأوان.

وقد يظن عندما يعرض الناقد لأزجال بيرم، أن فى صناعته ما يستحق النقد، ولكننى أحب رغم هذا أن أكتب رأيى فى بيرم كرجل فرض نفسه على ميدان الشعر الغنائى، ولم يحاول أن يسترضيه، وأرجو أن أجد فى صدر بيرم الشخصى، ما يشجعنى على أن أصرح برأيى فى بيرم.. بائع الأغانى.

لقد كتب زملاء قبلى عن بيرم، مستعرضين سيئاته فى تاريخ الزجل، ولقد كانوا فى الحق مترفقين به، فرجل يرضعه ماء النيل ويغذيه واديه ويحنو عليه أهله، ثم لا يستحق أن يقول فيه ما قال لجدير به أن يلقى بنفسه من أعلى مكان من كوبرى قصر النيل قربانا وتكفيرا.. ثم ما أنجس القربان، وما أتعس التكفير.

وأنتقل من هذه الناحية الشاذة من خلق بيرم، إلى الناحية الفنية، لأننى

* المصدر: جريدة الراديو والبعكوكة التاريخ غير معلوم.

أخشى أن يتهمنى ـ كما اتهم غيرى ـ بمحاولة تجريحه وهدمه، لمجرد الهدم والتجريح، ولأننى أود من صميم قلبى، أن يجد بيرم من عنجهيته ـ الغير فنية ـ ثغرة للاستماع إلى النقد كتوجيه لا كهدم ولا ذم.

تعالوا معى إلى مثل بسيط من عقلية بيرم، الذى يحاول فى اللحن التاسع من مسرحية عزيزة ويونس، أن يغلب سلطان الحب على سلطان الواجب الوطنى فى قلب شخصية مثالية كشخصية يونس فيقول على لسانه:

سهمك فى قلبى يا عزيزه رمانى

خلانى بانسى واجبات أوطانى

والحب عند العقلاء ـ إذا اعتبرنا جنية التصوير فى هذا البيت ـ أولى به أن يدفع إلى الحماس من أن يدفع عنه، ولكن لبيرم فى أزجاله شؤونا، قد يكون منها شأن اللخبطة الفنية.

وفى نفس الموطن يقول بيرم، هازئا بقواعد الفن واعتبارات المنطق السليم:

واللى يكون يكون

يا ام العيون فنون

ولعل بيرم قصد أن يقول ـ ياام الجمون فنون ـ ثم جاءت هكذا خطأ فى الكتابة لأن كلمة ـ الجنون فنون ـ تحمل من المعنى مالا تحمله هذه العيون.. التى هى فنون.

ومزاج بيرم يميل إلى الألفاظ الحادة، غير الشاعرية، تلك التى يمجها السمع والذوق، خصوصا إذا قيلت فى معنى شاعرى وفى معرض الغناء كقوله:

على كده أصبحت رأمسيت

وشافونى وقالوا اتجنيت

ولا يكتفى بيرم بهذا التصوير ـ الشوارعى ـ ولكنه ـ يستغفل ـ الجمهور ببضعة من ـ المرصوصات ـ دون اعتبار لدقة الوزن أو جمال المعنى، إذ يقول فى أحسن أغنية ـ رصها :

دى البـــوســـه اللى حلفت يمـــينك

لاخـــــدها من وسط جـــــبـــــينك

ففى الشطرة الأولى من البيت لا يحتاج الكسر إلى إشارة، كما أن معنى العجز الثانى هو معنى ـ خط يمينك ـ سواء بسواء، وهو ما يسمى ـ عمى التصور ـ الذى يقف بالناظم عند حدود معينة من التخيل، فيقول ـ خط يمينك.. اللى انت رسمته وخطيته..؟

ثم هو قد كرر كلمة ـ يمينك ـ فى الصدرين الأول والثانى فى مقام لا ينصرف الى الجناس ولا يعينه.

ولا تخلو ـ مرصوصات ـ بيرم من الخطأ، سواء كان فنياً أو موضوعياً، ذلك الخطأ الذى لم تسلم منه ـ ملحمة محمد على الكبير ـ حيث يقول فيها:

ولـيـــــــه الـقـــــــاضـى والـوالـى

يجـــيـــبـــهم بابـنـا الـعـــــالـى

وأى طفل يستطيع أن يقول لك، أن العجز.. لا ينسجم مع الصدر، فى ميزان واحد، وحركاتهما تختلف، وكان الأحرى بأخينا بيرم أن يقول مثلاً:

ولـيـــــــه الـقـــــــاضـى والـوالـى

يـيـــجـــوا لنا من البـــاب العـــالى

ولو أردت أن أعدد أخطاء بيرم، لما أمكننى أن أنتهى، ومع ذلك فبيرم يعتبر نفسه فريد عصره، ولعله بذلك يفسر قوله على لسان الآنسة سلامه ـ

سلام الله على الأغنام.

إن بيرم ـ غلبان ـ وقد أحجمت من قبل عن أن أزيد البقرة سكينا، ولكن أخانا بيرم لا يعترف بفضيلة التواضع، فهو غلبان.. ومقاوح.

أما إذا أصر بيرم على أن ينتسب للشعر الغنائى، فسأرجو منه أولا ألا يكون بائع أغانٍ، وألا يطفف فى الوزن، وألا يحتسب جيبه، قبل أن يحتسب وجه فنه ورضاء ربه، وبعد هذا فلينزل إلى الميدان، لنرى إن كان للفن فى تكوينه مكان.

■ ■ ■